الفصل الثامن:
تخير النطفة

إن المتتبع لسور وآيات القرآن الكريم يلاحظ أن الله عز وجل قد خلق النوع الإنسانى على أربعة أضرب[1]. أحدها: لا من ذكر ولا من أنثى كآدم عليه السلام. والثانى: من ذكر بلا أنثى كحواء عليها السلام. والثالث: من أنثى بلا ذكر كالمسيح عليه السلام. والرابع: من ذكر وأنثى كسائر النوع. والضرب الرابع أى خلق الإنسان من ذكر وأنثى هو موضوع حديث هذا الفصل. ومراحل خلق هذا الإنسان معروفة. وقد سبق توضيحها. وضحها القرآن الكريم. ووضحتها السنة النبوية الشريفة..

وفى إشارة إلى المرحلة الأولى من مراحل خلق الإنسان - يقول الحق تبارك وتعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ} الآية [الحج: ٥]. فالمرحلة الأولى من مراحل خلق الإنسان هى خلقه من تراب الأرض أسوة بأبيه آدم عليه السلام. والفارق بينهما، أن الله الخالق العظيم، خلق آدم بيده من تراب الأرض فلم يكن به منىّ. أما بنو آدم ففى خلقهم يخلط المنى بتراب الأرض. فيأخذ الملك الموكل بهذا الأمر من قبل الخالق جل وعلا، من التراب الذي يدفن في بقعته هذا الإنسان فيعجن به نطفته. وفى القرآن الكريم ما يدل على ذلك؛ حيث يقول المولى الكريم:{مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥} [طه: ٥٥]. وسوف نلقى الضوء على تفسير الآية بعد قليل. وفى سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ما

(1) أضرب: أنواع.

يدل أيضا على ذلك. حيث يقول النبى محمد صلى الله عليه وسلم :♂**ما من مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تراب حفرته**ـــ[1]. وقد روى مرة عن ابن مسعود أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة من الرحم فيضعها على كفه، ثم يقول: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال مخلقة، قال يا رب ما الرزق؟ ما الأثر؟ ما الأجل؟ فيقول أنظر في أم الكتاب، فينظر في اللوح المحفوظ، فيجد فيه رزقه، وأثره، وأجله، وعمله، ويأخذ التراب الذي يدفن في بقعته ويعجن به نطفته. فذلك قوله تعالى:{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ} [طه: ٥٥] [2] الآية.. والمقصود بكلمة الأثر في الرواية السابقة - رواية مرة عن ابن مسعود - التراب الذي يؤخذ فيعجن به ماؤه.

وقد وضح هذا المعنى في رواية أخرى عن علقمة عن عبد الله قال:

" إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها الملك بكفه، فقال: أى رب أمخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دما. وإن قال مخلقة، قال: أى رب أذكر أم أنثى؟ أشقى، أم سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأى أرض تموت؟ فيقول: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد هذه النطفة فيها، فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله، فتخلق، فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، فإذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك المكان، فالأثر هو التراب الذي يؤخذ فيعجن به ماؤه " [3]. ومن ذلك يتبين أن ذرية آدم من لدن هابيل ولده الأكبر إلى يوم الدين هى

(1) رواه أبو نعيم عن أبى هريرة ص95من كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة تأليف القرطبى سنة671هـ - الطبعة الثانية 1978م - حفرته: أى قبره.
(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.
(3) ص95، 96 من المرجع السابق.

الأخرى - خلقت وتخلق من تراب الأرض في المرحلة الأولى من خلق الإنسان. وليس آدم وحده هو الذي خلق من ترابها. ويؤيد ذلك أيضا ما أضافه الأستاذ الدكتور السعيد عاشور في كتابه " الإنسان في القرآن الكريم " وقد سبقت الإشارة إليه. وهو أن عناصر تكوين الإنسان هى نفسها عناصر تكوين الأرض وطينها..

ويقابلُ هذا التكريم الذي حظى به الإنسان في خَلْقِه، منذُ تَكَوُّنِ نطفته التي خلطت بتراب الأرض، تكريم آخر للنطفة أوجبه الإسلام على المسلمين والمسلمات إذا أرادوا الزواج. فعليهم أن يختاروا الوعاء الصالح للنطفة؛ لأنها تعد أمانة في أعناقهم، وعليهم أن يضعوها في موضعها اللائق بها. فقد صورها الخالق العظيم في أحسن صورة وهيئة. يقول ربنا العظيم:{خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣} [التغابن: ٣]. ويقول الحكيم العليم سبحانه: {لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤} [التين: ٤]. ومن ثم يجب على الإنسان إن أراد الزواج أن يحافظ على هذه النطفة ويضعها في موضع مصون مختار بإتقان؛ ليحمى الفرد والأسرة والمجتمع المسلم. ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يحث المسلمين والمسلمات على تخير الأوعية الصالحة للنطف المسلمة. فيقول ربنا الكريم:{ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ} [النور: ٢٦] الآية، فسنة الله عز وجل في خلقه من البشر أن يقترن الطيبون بالطيبات، وأن يرتبط الخبيثون بالخبيثات. فيلجأ الطيب إلى الطيبة ويلجأ الخبيث إلى الخبيثة. فالزانى مثلا لا يقترن إلا بزانية أو مشركة، فكلاهما خبيث. وكذلك الزانية لا يتزوجها إلا زان أو مشرك لأن كلاهما خبيث. وصدق الله العظيم حيث يقول:{ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ

ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾} [النور: ٣].

وفى مجال السنة النبوية الكريمة يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم :♂**تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم**ـــ [1]. ويقول الهادى البشير صلى الله عليه وسلم : ♂**تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس**ـــ [2]. ويقول صلى الله عليه وسلم :♂**خير نسائكم العفيفة الغلمة، عفيفة في فرجها غلمة على زوجها**ـــ [3]. وحثت السنة النبوية أيضا على تجنب الزواج من البيئة غير الصالحة لذلك ومن النساء غير الصالحات. وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم :♂**إياكم وخضراء الدمن**ـــ قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال:♂**المرأة الحسناء في المنبت السوء**ـــ [4].. ففى النصوص السابقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة والتى أشرنا إليها - ما يشير إلى وجوب تخير البيئة الصالحة والبيت المعروف بشرف العِرض والطيب والأخلاق الكريمة.. كما يجب التأكد من السلامة العامة للجسم، حيث تنتقل صفات الأبوين العقلية والخِلقية والجسمية وحتى الأخلاقية إلى الطفل.. وقد سبق الإسلام العلم الحديث في بيان ذلك والمطالبة به. وأشارت إليه نصوص إسلامية كثيرة، قبل أن يصل إليه علم الوراثة الحديث بأكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان. ومن ذلك -

(1) رواه ابن ماجة بسنده عن عائشة ص375 - من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور وزير الأوقاف السابق.

(2) أخرجه ابن عدى عن أنس ص53من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد لعبد العزيز الشناوى 1994م.

(3) رواه الديلمى عن أنس ص74حرف الخاء من مختار الأحاديث النبوية للهاشمى - الغلمة: التي تهوى جماع زوجها.

(4) رواه الدارقطنى في الإفراد والديلمى عن أبى سعيد الخدرى والرامهرمزى في الأمثال من حديث أبى سعيد الخدرى ص68، 69من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى - تحقيق محمد عثمان الخشت يونيو1984م. فالمرأة سيئة الخلق والسلوك تكون كالبهيمة التي تربى في المزبلة وإن كانت حسنة المظهر.

علاوة على ما سبق: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن**ـــ [1]. وفى حديث أنس بن مالك الثابت في الصحيحين البخارى ومسلم قول النبى صلى الله عليه وسلم لأم سلمة رضى الله عنها:♂**ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا أو سبق يكون منه الشبه**ـــ[2]. وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة:♂**إذا علا ماؤها ماء الرجل، أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها، أشبه أعمامه**ـــ [3].

وحتى في الذكورة والأنوثة قد يمكن تحديد نوع المولود ذكرا كان أم أنثى بعُلُوِّ ماء أحد الزوجين. فقد دلت بعض الآثار الإسلامية على أنه إذا علا ماء الرجل ماء الأنثى كان المولود ذكرا بإذن الله. وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان المولود أنثى بإذن الله. فقد " ورد في حديث مسلم عن ثوبان أن حبرا من أحبار اليهود قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أردت أن أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان، قال:♂**أينفعك إن حدثتك**ـــ**؟** قال: أسمع بأذنى. قال: جئتك أسألك عن الولد، قال:♂**ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر. فإذا اجتمعا فعلا منىّ الرجل منىّ المرأة أذْكَرا بإذن الله. وإذا علا منى المرأة منى الرجل أَنَّثَا بإذن الله**ـــ. فقال اليهودى: لقد صدقت وإنك لنبى. ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**قد سألنى عن الذي سألنى عنه ومالى**

(1) رواه ابن عدى وابن عساكر عن عائشة ص53 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

(2) رواه أنس في الصحيحين ص193من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - لابن قيم الجوزية.

(3) نفس الصفحة من المصدر السابق.

علم بشيء منه حتى أتانى الله عز وجل به [1].

وقد تقتضى مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يعلو ماء الرجل ولا يكون المولود ذكرا أو يعلو ماء الزوجة ولا يكون المولود أنثى. فتبقى إذن مشيئة الله تعالى هى الغالبة. ورغم ذلك لم يتوصل العلم إلى إمكان معرفة جنس المولود إلا في العصر الحديث في المرحلة الأخيرة من الحمل. فالإسلام سابق للعلم الحديث في هذا المجال أيضا كما وضحنا. يقول الأستاذ الدكتور السعيد عاشور في كتابه " الإنسان في القرآن الكريم " [2]: جنس الجنين يتحدد على ثلاثة مستويات: مستوى الغيب ومستوى الصبغيات ومستوى الأنسجة. وعن مستوى الغيب يقول: " قدر الله أمر المخلوقات قبل تمام الخلق في اللوح المحفوظ، ثم قدرها في عالم الذر أى قبل مولد الإنسان ". وعن مستوى الصبغيات يقول: " قدر الله تعالى نوع جنس الجنين في الحيوان المنوى الذي يلتقى بالبويضة الأنثوية لتلقيحها. فإذا التقى حيوان منوى يحمل شارة الذكورة " y " بالبويضة التي تحمل دائما شارة الأنوثة " x " - فإن الجنين سيكون بمشيئة الله تعالى ذكرا. أما إذا التقى حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة " x " بالبويضة التي تحمل دائما شارة الأنوثة " x " - فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله تعالى ". وعن مستوى الأنسجة يقول الدكتور السعيد عاشور: " يبدأ في نهاية الأسبوع الرحمى العاشر نمو خصية الذكر قبل نمو بويضة الأنثى - من الحدبة التناسلية الواقعة بجوار الكلى في المنطقة المحددة بين الصلب (منتصف العمود الفقرى) والترائب (أسفل

(1) ص36، 37من كتاب تنوير الأذهان بذكر أطوار خلق الإنسان - لابن قيم الجوزية.
(2) ص95من كتاب الإنسان في القرآن الكريم - للأستاذ السعيد عاشور - أستاذ الهندسة الصناعية والإدارية - بكلية هندسة المنصورة.

الضلوع الصدرية) مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧} [الطارق: ٥ - ٧]. ثم يقول: " وتبدأ الأعضاء التناسلية الظاهرة ببرعم صغير يلتصق في الذكر مكونا كيس الصفن، أو يبقى مشقوقا في الأنثى " [1]. ولا يكشف ذلك إلا طبيب حاذق وقد لا يستطيع وقد وضحنا سابقا أن الإسلام قد سبق العلم الحديث - كما هو واضح في النص العلمى السابق - في إمكانية معرفة جنس الجنين. ومع ذلك يبقى الأمر مرهونا بمشيئة الله عز وجل. فيصبح تكهن العلم الحديث بذلك نوعا من العلم المتقدم الذي قد يحصل وقد لا يحصل. وفى ذلك يقول المولى العظيم سبحانه:{لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠} [الشورى: ٤٩ - ٥٠]..

والمهم في هذا الأمر كما قدمنا هو الاهتمام بهذه النطف ووضعها في وعائها الصالح اللائق بها. وهذا حق الأجيال الناشئة من لدن هابيل إلى يوم الدين. وهو أيضا واجب الأبوين في كل أسرة على مستوى العالم الإسلامى كله حتى تكون الأسرة المسلمة سعيدة والمجتمع الإسلامى أسعد وأوفق.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن انتقال الأمراض الخطيرة والعيوب الخلقية المؤثرة من الأبوين إلى الأبناء عن طريق الوراثة - وارد ومحتمل. وخصوصا إذا كان هناك اتجاه للزواج من الأقارب مع وجود شبهة في احتمال انتقال مرض خطير أو عيب خلقى منفر. وتحذرنا كتب السنة النبوية المباركة من الاتجاه إلى الزواج من الأقارب في هذه الحالة. فالقرابة كما ثبت واقعيا - قد تسهم في نقل

(1) نفس الصفحة من المرجع السابق.

هذا المرض أو العيب الخِلقى الخطير إلى الذرية القادمة. ولذلك ورد نهى عمر بن الخطاب لبنى السائب وتحذيرهم من الزواج بالأقارب خشية انتقال الأمراض والعيوب الخلقية الخطيرة - بعد أن رأى أجسامهم واهية ضعيفة سقيمة. فقد روى ابن أبى مليكة عن عمر بن الخطاب قوله لهؤلاء القوم: " يا بنى السائب إنكم قد أضويتم فانكحوا في النزائع " [1].

ففى هذا الأثر نهى عن الزواج من الأقارب بسبب ما عندهم من مرض يتوقع انتقاله إلى الذرية.. ويؤيد احتمال انتقال المرض من الأبوين إلى الأبناء بالزواج من الأقارب عن طريق الوراثة - ما قاله العلامة أبو حامد الغزالى في كتابه " الزواج الإسلامى السعيد ". فقد قال:

" إن الوراثة تتم عن طريق الصفات الوراثية بما فيها الاستعداد المرضى والعيوب الأنزيمية. وتحمل الجينات هذه الصفات الوراثية في الخلايا الحية. وإذا وُجِدَ العيبُ الخِلقى الذي تحمله إحدى جينات الأب مثلا وتزوج سيدة لا تحمل مثل هذا العيب - فإن انتقال الصفة للأبناء يكون مخففا وضعيفا. أما إذا كانت الزوجة تحمل مثل هذا العيب لوجود قرابة للزوج غالبا - فإن انتقال العيب إلى الأبناء يتضاعف باستمرار. وكلما كانت درجة القرابة بين الزوجين أكثر كانت الاحتمالات أكبر " [2]. فهذا النص يوضح بجلاء أن احتمال انتقال المرض أو العيب

(1) ذكره الزبيدى عن إبراهيم الحربى في الغريب وعن أبى نعيم في فضل النفقة على البنات. انظر الزبيدى على الأحياء349/5 - أضويتم: ضعفتم وأصابتكم العلل - النزائع: الغرائب. وانظرص284من كتاب السنة في الزواج - للدكتور الأحمدى أبو النور.

(2) ص59من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى - تحقيق محمد عثمان الخشت.

الخلقى من إحدى جينات الأب الغير متزوج من قريبة تكون أقل بكثير مما إذا كان هذا الأب متزوجا من قريبة له تحمل هذا العيب أو المرض بسبب قرابتها له..

ومن هنا يجب التحرى بدقة عند الاختيار. كما يجب تجنب الاختيار من الأقارب إذا كانت هناك شبهة في احتمال مرض أو وجود عيب خِلقى خطير يخشى انتقاله في حالة الزواج من الأقارب. وتلك مسؤولية الزوجين حتى لا ينتج عن هذا الزواج جيل مريض من الأبناء والبنات أو يحمل عيوبا خلقية لا يمكن تجنبها أو تقبلها. فالغاية من الزواج إنتاج جيل صالح خال من العيوب الخلقية والأمراض الخطيرة حتى لا تحرم الأسر والأفراد المسلمة من السعادة التي هى الغاية من الزواج وسوف. نلقى مزيدا من الإيضاح لهذه المسألة في حديثناعن الزواج من الأقارب إن شاء الله تعالى.

* * *